العلمانية وأسسها

د . سعيد بن أحمد الأفندي(*)

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد:

فلكل مجتمع خصائص تميزه عن غيره، تتشكل عبر تجاربه التاريخية المنبثقة من ظروفه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الخاصة به، وكما أن للغرب طابعه وخصوصيته التي تميزه عن المجتمعات الأخرى، كذلك للشرق طابعه وخصوصيته، فعلى سبيل المثال: ارتبط تقدم الغرب في العصور الحديثة بظهور منهج العلمانية، الذي قضى بفصل الدين عن الدولة، بينما تميز الشرق الإسلامي بقوة حضور الدين في الحياة العامة، وإن كان هناك اختلاف في طبيعة تقدم كل منهما، فمن تقدم مادي واقتصادي في الغرب، إلى تقدم مادي وروحي في الشرق؛ وخاصة فترة ازدهار الحضارة الإسلامية ما بين القرنين السابع والثالث عشر الميلادي.

وجاء ظهور المنهج العلماني في المجتمعات الغربية نتيجة صراع استمر عدة قرون بين الطبقة الحاكمة المتمثلة بـــ (الملكية الإقطاعية المتحالفة مع الكنيسة)، وبين الطبقة البورجوازية الصاعدة إبان عصر النهضة.

(*) عضو هيئة التدريس بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الملك عبد العزيز .

ويعتبر مفهوم العلمانية من أكثر المفاهيم التي تعرضت للتشويه وسوء الفهم، خصوصاً في مجتمعاتنا العربية، فوصفها البعض بأنها منهج يحارب الدين، ووصفها آخرون بالمنهج الداعي إلى الانحلال الأخلاقي!! وفريق ثالث اعتبر العلمانية إحدى أخطر المؤامرات الهادفة لتدمير مجتمعاتنا الإسلامية... بينما وصفها مفكرون بأنها الحل الأمثل لإقامة الدولة الحديثة على أسس المواطنة؛ حيث تتحقق العدالة والمساواة لجميع أفراد المجتمع. هذه الاختلافات والتناقضات حول مفهوم العلمانية دفعتنا لضرورة تقديم دراسة مختصرة حولها، نستجلي فيها خفاياها، ونميط اللثام عن أسرارها، وظروف نشأتها، وآراء المفكرين بها ، وموقف بعض علماء المسلمين منها.

وقد قصرنا بحثنا هذا على مبحثين: الأول: استعرضنا فيه تعريفات العلمانية المتعددة، وتاريخ نشوئها، والظروف التي رافقت نشأتها. والثاني: بحثنا فيه الأسس التي قامت عليها، ووجهات نظر المفكرين الغربيين والعرب الذين تناولوا ظاهرة العلمانية بحثاً وتحليلاً ونقداً وتفنيداً، وموقف العلمانية من التراث.

يتضمن هذا البحث مبحثين:

* المبحث الأول: تعريف العلمانية.

* المبحث الثاني: أسس العلمانية.

المبحث الأول

تعريف العلمانية

يُعد مفهوم العلمانية من أكثر المفاهيم خلافية منذ نشأتها؛ حيث يقدم كل مفكر تعريفاً مختلفاً لظاهرة العلمانية حسب رؤيته وموقفه منها، وحسب الحقبة التاريخية التي يمثلها.

المطلب الأول :التعريف اللغوي للعلمانية:

إن كلمة علمانية بالعربية هي ترجمة لنظيرتها الإنجليزية Secularism، وأصلها اللغوي secular وهي مشتقة من كلمة لاتينية في العصور الوسطى Saeculum، والتي تعني **(الجيل أو العصر أو الزمن)**، كما استخدمت في اللاتينية المسيحية للإشارة إلى **(العالم في مقابل الكنيسة)**[(١)].

ويمكن التمييز هنا بين الترجمة العلمانية لنظيرتها الإنجليزية Secularism، ونظيرتها الفرنسية Laicité، فالعلمانية في اللغة العربية ترجمة للمصطلحين في الإنجليزية والفرنسية في نفس الوقت، لكن العلمانية الإنجليزية أقل حدة من نظيرتها الفرنسية، فالعلمانية الإنجليزية تعني **(الزمانية)**، أي: الاهتمام بهذا الزمن لتحقيق الرفاهية، كما عرفها "جورج هوليوك" (١٨١٧-١٩٠٦م)، بينما العلمانية الفرنسية تعني **(اللادينية)**؛ حيث إن ممارسة أي طقوس أو مظاهر دينية في المجال العام الفرنسي أمر محظور. ويمكن التفرقة بين العلمانيتين: الإنجليزية والفرنسية بنفس المعيار الذي وضعه المفكر عبد الوهاب المسيري

---

(١) انظر: د. مي سمير عبده متولي: العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر، المكتب العربي للمعارف، ط١، القاهرة ٢٠١٣م، ص١٢، ١٣.

بتقسيم العلمانية إلى **جزئية وشاملة**،فالعلمانية الإنجليزية جزئية، والعلمانية الفرنسية شاملة[١].

وقد عرَّفت الموسوعة البريطانية كلمة*Secular*على أنها: ما يتعلق بما هو **(دنيوي أو زماني)** أو **(ما ليس ديني)**، مثل: الموسيقى، أو **(ما ليس كهنوتي التنظيم)** مثل: المحاكم غير محكوم بالاعتبارات أو القواعد الرهبانية الخاصة.

ويعرف قاموس (وبستر) العلماني*Secularism*على أنها: **(اللامبالاة أو الرفض أو الاستبعاد للاعتبارات الدينية).**

وأما قاموس أكسفورد فقد عرف العلمانية *Secularism* على أنها: **(العقيدة التي تؤمن بأن الدين يجب ألا ينغمس في مؤسسات الدولة، أو مؤسسات التعليم وغيرها من المؤسسات العامة).**

كذلك عرَّف قاموس (كامبريدج) **(العلماني*Secular* بأنه ما ليس له علاقة بالدين)**[٢].

المطلب الثاني: التعريف الاصطلاحي للعلمانية :

إن المفكر البريطاني (جورج هوليوك) هو أول من أطلق مصطلح العلمانية في الغرب، وذلك عام ١٨٥١م؛ حيث عرَّف (هوليوك) العلمانية بأنها: تحقيق رفاهية وسعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا عن طريق وسائل مادية،مثل: التقدم العلمي، مع التأكيد على أن العلمانية لا تعادي الدين، ولكنها نظرة لهذا العالم

---

(١) انظر: نفس المرجع السابق، ص(١٤، ٢٢).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص(١٥).

المحسوس والواقعي مستقلة عن الدين وعن أي حياة أخرى لا يمكن التأكد من وجودها من عدمه[(١)].

ولقد عرَّفت لغتنا العربية أول ترجمة لمصطلح (العلمانية) في معجم عربي فرنسي، كان أثراً من آثار الحملة الفرنسية على مصر، فواضعه – لويس بقطر المصري – كان من الذين رحلوا إلى فرنسا مع جيش الحملة الفرنسية المنهزم، ودرس هناك العامية المصرية، وأصدر معجمه هذا سنة ١٨٢٨م، وفيه ترجم الكلمة الفرنسية *Laique* بـــ(علماني)، من العلم ، نسبة إلى (العالَم)، باعتباره (الدنيا) المقابلة (للدين)، للتعبير عن مذهب الوضعية الغربية الذي يقيم (ثنائية – التناقض) بين (الدين) وبين (العمران الدنيوي) [(٢)]. ثم استخدم المصطلح، بعد ذلك في العربية ترجمة للكلمة الإنجليزية *Secularism*.

إن العلمانية هي جملة من التحولات التاريخية السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية والأيديولوجية، وهي تتدرج في أطر أوسع من تضاد الدين والدنيا؛ بل إنها تابعة لتحولات سابقة عليها في مجالات الحياة المختلفة، وهذه العلمانية لها وجوه منها: وجه معرفي ويتمثل في نفي الأسباب الخارجة على الظواهر الطبيعية أو التاريخية، وفي تأكيد تحول التاريخ دون كلل. ووجه مؤسسي يتمثل في اعتبار المؤسسة الدينية مؤسسة خاصة كالأندية والمحافل، ووجه سياسيي يتمثل في عزل الدين عن السياسة، ووجه أخلاقي وقيمي يربط

---

(١) انظر: د. مي سمير عبده متولي: العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر، ص(١٦).

(٢) انظر: د. السيد أحمد محمد فرج: (علماني وعلمانية، تأصيل معجمي)، مجلة (الحوار) عدد ٢، سنة ١٩٨٦م، ص(١٠١-١١٠).

الأخلاق بالتاريخ والوازع بالضمير، بدل الإلزام والترهيب بعقاب الآخرة. ولكل من هذه أشكال ومناسبات مع وقائع التاريخ المحيطة بها[1].

فالعلمانية لا تستبعد الإرشاد والتوجيه الديني للأفراد وتستأثر بهذا الدور لنفسها، ولكنها تقوم بهذا الدور على صعيد الحياة القائمة، وتحقيق الرفاهية فيها للإنسان[2].

وأخذت العلمانية في الغرب الحديث عدة معان: ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت تعني (فصل الدين عن الدولة)، وفي القرن التاسع عشر تحولت إلى (إبعاد الدين عن الدولة)، وجاء القرن العشرون ليخفف قليلاً من موقف الدولة والأفراد تجاه الدين[3]، ويتمثل هذا التغير الطفيف في عودة السلطة الزمنية للكنيسة الكاثوليكية في عام (١٩٢٥م) بإعادة قيام دولة الفاتيكان كوحدة سياسية، بعد أن أُدمجت الولايات البابوية في مملكة إيطاليا منذ عام (١٨٧٠م)، ويتمثل هذا التغير أيضاً في السماح بقيام الأحزاب السياسية المسيحية في أكثر من دولة من دول الغرب[4].

ومن خلال تعريفات العلمانية في المعاجم الغربية، نجد أنها تتفق جميعاً على وجوب إخراج الدين من الصراع السياسي والاجتماعي بشكل عام، لكنها

(١) انظر: د. عزيز العظمة: العلمانية من منظور مختلف، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٢م، ص(٣٧).

(٢) انظر: د. مي سمير عبده المتولي: العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر، ص (١٦).

(٣) انظر: جون هرمان راندال: تكوين العقل الحديث، ترجمة: د. جورج طعمة، ج١، دار الثقافة – بيروت، ١٩٦٥م.

(٤) انظر: تاريخ البشرية، المجلد السادس، ج٢. ترجمة: عثمان نويه وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١م، ص(٢٩٥) وما بعدها.

لا تتعرض للإيمان الفردي، أو تعادي فكرة التدين، إنها فقط تسعى إلى عدم انغماس الدين في الحياة العامة، حتى لا يتعارض ولاء الفرد للدين مع ولائه للدولة، وحتى لا تحدث صراعات بين الأفراد المختلفين مذهبياً ودينياً في المجتمع، خاصة وأن المجتمع الأوروبي شهد مجموعة من العوامل التي دفعت كثيرين للمطالبة بالعلمانية، وإخراج الدين من الساحة الاجتماعية نهائياً(١).

والعلمانية كما يقول د/فؤاد زكريا: "إطار فضفاض شديد الاتساع، يمكن أن يحتوي في داخله على شتى أنواع المواقف السياسية والأيدولوجيات؛ فمن الممكن أن يكون هناك علماني يميني، وعلماني يساري، وعلماني ليبرالي، وعلماني ماركسي، وعلماني متدين، وعلماني غير متدين. وهكذا فإن العلمانية لا تكشف لنا عن الطريق الذي ينبغي أن نسير فيه، وإنما تشير بوضوح إلى الطريق الذي ينبغي أن نتجنبه، ثم تترك لنا بعد ذلك حرية اختيار المسار"(٢).

ويعرِّف (شبلي العيسمي) العلمانية بأنها: "جملة من التدابير، جاءت وليدة الصراع الطويل بين السلطتين الدينية والدنيوية في أوروبا، واستهدفت فك الاشتباك بينهما، واعتماد فكرة الفصل بين الدين والدولة، بما يضمن حياد هذه تجاه الدين، أي دين، ويضمن حرية الرأي، ويمنع رجال الدين عن إعطاء آرائهم صفة مقدسةً(٣).

فالعلمانية هي بمثابة نقطة الانطلاق التي بدأ الفكر السياسي الأوروبي منها إسهاماته الهامة فيما يتعلق بالدولة والفرد والمجتمع، وهي دعوة لتحرير الدولة

(١) انظر: المرجع نفسه، ص(١٥، ١٦).

(٢) د. فؤاد زكريا: الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة – باريس، ١٩٨٩م، ص٨٠.

(٣) انظر: د. شبلي العيسمي: العلمانية والدولة الدينية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦م، ص (١٩).

من سيطرة الكنيسة، وتحرير الفكر الأوروبي من الدوران في فلك دراسة العلاقة بين الدين والدولة، مما جعله يضع نظريات سياسية أثَّرت في العالم كله، بالإضافة إلى بقاء هذه النظريات واستقرارها قروناً طويلة حتى شكلت العقيدة السياسية الغربية، وأصبحت راسخة في الوجدان الأوروبي(١).

يقول المستشرق (آربري) في كتابه (الدين في الشرق الأوسط) عن الكلمة نفسها: إن المادية العلمية، والإنسانية، والمذهب الطبيعي، والوضعية، كلها أشكال اللادينية، واللادينية صفة مميزة لأوروبا وأمريكا، ومع أن مظاهرها موجودة في الشرق الأوسط، فإنها لم تتخذ أي صبغة فلسفية أو أدبية محددة، والنموذج الرئيسي لها هو فصل الدين عن الدولة في الجمهورية التركية(٢).

وباختصار: العلمانية تعني **عزل الدين عن الحياة السياسية والاجتماعية للأفراد**، وظهرت في المجتمع الأوروبي كرد فعل مضاد لتسلط الكنيسة التي جمعت في يدها كل شؤون الحياة، من سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية.

**

---

(١) انظر: د. مي سمير عبده المتولي: العلمانية في الفكر العربي والإسلامي المعاصر، ص (٥٤).

(٢) انظر: د. محمد مصطفى الشناوي، د. خالد إبراهيم حسب الله: المذاهب المادية جذورها وتطورها دراسة نقدية، ١٩٩٧م، ص(١١١)

المبحث الثاني

أسس العلمانية

يوجد للعلمانية أكثر من أساس، وأهمها ما يلي:

المطلب الأول: العقل

يقول "ألبير بايه": إن العلمانية تضمنت مفهوماً فلسفياً ينص على استقلالية العقل ومقدرته، وهذا هو المفهوم الذي على فرنسا العمل لانتصاره، ولا يمكنها أن تفعل ذلك إلا على حساب المسيحية[١]، وعلى ذلك فالعلمانية تعني الاعتماد على (العقل دون الوحي)، وإرجاع كل المسببات إلى (النواميس الطبيعية) وحدها دون القوة الإلهية الخالقة والمدبرة للكون، واعتماد (العقل) وحده مصدراً للقوانين، دون نظر إلى (الشريعة الإلهية) ومقاصدها وأحكامها، وإن هذه العلمانية لا تقيم للدين وزناً فيما يتعلق بسياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران[٢].

ولهذا يرى د. فؤاد زكريا أن العلمانية: هي في أساسها تعبير عن منهج معين في التفكير،لا ينبغي أن يكون مرتبطاً بالغرب، وأنها تمثل احتياجاً فكرياً دائماً، يمكن أن يظهر في أي مجتمع يحاول كسر نطاق السلطة العقلية والانتقال إلى مرحلة التفكير المستقل، فإذا كان الأمر كذلك فإن قوام العلمانية هي (قيم العقلانية، وروح النقد، والتزام المنطق العملي، والاستقلال عن السلطة الفكرية) [٣].

---

(١) انظر: ل. دونوروا ألبير بايه: من الفكر الحر إلى العلمنة، ترجمة: د. عاطف علبي، ط ١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ١٩٨٦م. ص (٢٨).

(٢) انظر: د. محمد عمارة: العلمانية ونهضتنا الحديثة، ص (١٣٠).

(٣) انظر: د. فؤاد زكريا: الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، ص (٧٣).

ومن ثم فهي ضرورة لازمة لكل مجتمع يتراجع فيه التفكير المستقل، ويحل محله التفكير العاجز الذي يرتكز دائماً على مصدر خارجه، ويرى نفسه أشد قصوراً من أن يستطيع مواجهة المشكلات بنفسه، وبهذا المعنى تكون العلمانية مبدأ أصيلاً تحتاج إليه جميع المجتمعات البشرية إذا وجدت نفسها تواجه صراعاً بين استقلالية الفكر وسلطويته(١).

ويرى (د. فؤاد زكريا) أن الذي يرجع إلى النص، أو تتحكم فيه أي سلطة كانت، دينية أو غيرها، يجر وراءه مجموعة من النتائج التي تحول دون حدوث أي تقدم علمي أو فكري أو اجتماعي حقيقي، كالاعتقاد بأن المرء يملك الحقيقة المطلقة، وبأن الشريعة كلها تنقسم إلى أهل الحق (الذين ينتمي إليهم صاحب هذا الاعتقاد بطبيعة الحال)، وأهل الباطل (وهم الآخرون جميعاً – مع أن كلاً منهما يؤمن طبعاً بحقيقته المطلقة الخاصة به)، وكذلك الاعتقاد بأن دور العقل ثانوي أو هامشي، وبأن التغير وهمٌ ظاهريٌ، وبأن الاعتماد على التجربة والخبرة والممارسة علامة قصور؛ لأن أرفع الحقائق هي التي تأتي من السلطة العليا(٢).

المطلب الثاني: آراء المفكرين العرب حول الاعتماد على العقل

يرى مفكرو التيار العلماني أن الدين – ممثلاً في نصوص القرآن والسنة – يجب أن يخضع للعقل البشري واجتهاده، فالتيار العلماني المتشدد يرى خضوع الدين في جميع نصوصه للعقل، سواء تلك الخاصة بالمعاملات أو غيرها. أما التيار العلماني المعتدل فيرى إخضاع الدين في شقه الخاص بالمعاملات فقط لاجتهاد العقل البشري، وأنه لا يجب إضفاء أي قدسية على شق المعاملات، حتى لا يتسم الدين الإسلامي بالرجعية والجمود، خاصة وأن الدين

(١) انظر: المرجع نفسه، ص (٧٢).

(٢) انظر: المرجع السابق، ص(٧٠).

الإسلامي لم يعط ملامح محددة لكثير من الضوابط في مجالات السياسة والاقتصاد والمجتمع، وهنا يأتي دور العقل البشري لتقديم إسهامه في هذا الشأن، بما لا يتعارض مع المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية؛ كالعدل، والمساواة، والحرية، وغيرها من المبادئ التي لا تمثل عائقاً أمام اجتهاد العقل البشري، وبالتالي فإن الدعوة إلى تطبيق الشريعة لا تكون مرفوضة لدى التيار العلماني المعتدل إذا تم إخضاع هذه الشريعة في شق المعاملات للعقل البشري، دون التقيد بآراء المجتهدين الأوائل في هذا الشأن؛ لأن ما يناسب المسلمين في ذلك الوقت لا يناسبهم بالضرورة في العصر الحالي، وبالتالي فإن فتح باب الاجتهاد هو الحل لتفعيل فكرة الشريعة التي يدعو إليها التيار الإسلامي، وكأنها مجموعة واضحة من النصوص قطعية الدلالة، وهو ما حاول كثير من المفكرين العلمانيين إثبات خطئه، مثل: (د. نصر حامد أبو زيد، د. حسن حنفي)، بتوضيح الفارق الجوهري بين الشريعة بمعنى المنهج والطريق العام الشامل للحياة، وبين الفقه الإسلامي الذي يعتمد أساساً على اجتهاد العقل البشري في لحظة تاريخية ما؛ استجابة لظروف عصره، وبالتالي يجب أن يخرج الفقه الإسلامي من وجهة نظر أنصار التيار العلماني بشقيه المتشدد والمعتدل من دائرة القدسية التي تحيط به(١).

- ويتفق أنصار العلمانية على أن العقل البشري هو صاحب الأولية على ما عداه من مصادر أخرى في مجال السياسة بشكل خاص، وفي مجال الحياة البشرية بشكل عام؛ بل وحتى في مجال تفسير النصوص الدينية نفسها، التي يرى أنصار تطبيق الشريعة أنها نصوص ثابتة وواضحة، ولا تحتاج تدخلاً

---

(١) انظر: د. نصر حامد أبو زيد: نقد الخطاب الديني، ط٢، سينا للنشر القاهرة، ١٩٩٤م، ص (١١٧-١٣٧).

من العقل البشري، ويستخدمون تفسيرات محددة لنصوص الشريعة غير مسموح بالاختلاف معها، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

- يرى (د. حسن حنفي): أن " الأدلة الأربعة التي يعتمد عليها علم الفقه هي القرآن والسنة والإجماع والقياس، القرآن والسنة دليلان نصيان، والإجماع والقياس دليلان عقليان، ولما كان الكتاب والسنة أيضاً يعتمدان على العقل؛ سواء في شروط التواتر، أو الاعتماد عليه كدليل قطعي، أو إدراكه للحسن والقبيح كصفات موضوعية في أفعال، وكأبنية فعلية في المجتمع، كان العقل أساس الأدلة الشرعية الأربعة، والتي انصبَّت كلها في النهاية في الاجتهاد، أي في دليل العقل؛ فالعقل أساس النقل في دليلي الإجماع والاجتهاد، فالأدلة الأربعة كلها ترتكز على الدليل الرابع دليل العقل، وبالتالي كانت الأولية الفعلية لدليل العقل على دليل النقل"(١).

- كذلك تمثلت فكرة أولوية العقل على النقل في كتابي عادل ضاهر: (أولية العقل) و(اللامعقول في الحركات الإسلامية المعاصرة)، حيث سعى إلى إخضاع جميع مقولات التيار الإسلامي للعقل، بحيث أثبت في النهاية أن مقولات مثل: (لا اجتهاد مع نص) و(الإسلام دين ودولة)، وغيرها من مقولات الإسلاميين، كلها مقولات لا يقبلها العقل البشري، ولا تخضع لأي معايير منطقية، ومن ثم سعى إلى تفنيد مقولات الإسلاميين بشكل موضوعي، وإثبات أن مقولات الإسلاميين تسعى إلى إضفاء نوع من القدسية عليها نظراً لأنها في الواقع لا تخضع لأي معايير عقلانية أو موضوعية.

---

(١) انظر: د. حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة: النبوة – المعاد، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٨م، ص (٢٨٠– ٣١٥).

- كذلك سعى (د. فؤاد زكريا) في كتابه:(الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة) إلى الرد على مقولات الجماعة الإسلامية في مصر التي قامت باغتيال الرئيس السادات؛ حيث قام بتفنيد مقولاتها بشكل منطقي وعقلاني، وعلى رأس هذه المقولات فكرة تطبيق الشريعة؛ حيث أكد عدم إمكانية تطبيق الشريعة دون خضوعها للأهواء الشخصية واجتهادات البشر، كل على حسب قدرته العقلية في فهم النصوص(١).
- وتتمثل أولوية العقل في فكرة أن العالم الإسلامي المعاصر يواجه أموراً لم يواجهها أئمة الفقه في عصورهم، وأنه لا قاعدة محددة يمكن الرجوع إليها بشأن كثير من قضايا العصر، وهذا يفسح مجالاً واسعاً لا قيد عليه ولا حد له للاجتهاد بشأن هذه القضايا، وهو اجتهاد لا يخرج من عباءة الدين، كما أنه لا يتناقض معه بأي حال، ويحقق المصالح المرسلة للمجتمع، وهي قاعدة إسلامية صحيحة. ومن ثم يصبح الاجتهاد ليس خروجاً عن الدين؛ بل احتراماً لجوهره وروحه، وليس ابتعاداً عنه بقدر ما هو امتناع عن إقحامه دون دليل أو سند، وليس اعتراضاً على فرض منطقي؛ بل تحذيراً من نتيجة غير منطقية، وهي دعوة لاستخدام العقل وعدم قصره على النقل(٢).

المطلب الثالث: العلمانية والتراث:

يرى أنصار التيار العلماني أن التراث ليس فوق النقد، ولكنه يخضع للمراجعة، مثله مثل الحضارة الغربية، ومثل غيرهما من المصادر الفكرية التي يمكن الاستفادة منها لتحقيق النهضة العربية والإسلامية.

---

(١) انظر: د. فؤاد زكريا: الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، دار الفكر، القاهرة ١٩٨٦م، ص (١٠-١٥).

(٢) انظر: فرج فودة: حوار حول العلمانية، دار المستقبل العربي، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٨٠-٨١.

حيث انتقد (د. فؤاد زكريا) فكرة أن الآراء الموروثة عن الأجداد يعتقد أن لها قيمة خاصة، وأنها تفوق الآراء التي يقول بها المعاصرون، ويرتكز هذا العنصر على الاعتقاد بأن الحكمة كلها والمعرفة كلها تكمن في القدماء، ومن هنا فهو مبني بطريقة ضمنية على نظرة إلى التاريخ، تفترض أن هذا التاريخ يسير في طريق التدهور، وأن مراحله الماضية أعلى مستوى من مراحله الحاضرة.

ويؤكد (د. فؤاد زكريا) أن القدماء كانوا بشراً مثلنا، معرضين للصواب والخطأ، وكل ما في الأمر أن الإنسان إذا كان يضيق بحاضره أو يجد نفسه عاجزاً عن إثبات وجوده في الحاضر، يصبغ الماضي بصبغة ذهبية!! ويتخذ منه مهرباً وملجأً يلوذ به؛ بل إننا نستطيع أن نقول مع (بيكون): إن الأجيال القديمة التي نتصور أنها تمثل شيخوخة البشرية وحكمتها هي في الواقع أجيال جديدة، ومن ثم فهي تمثل طفولة البشرية، أما الأجيال الحديثة التي نصفها بالطفولة ونقص الحكمة والتجربة، وندعوها دائماً إلى أن تأخذ الحكمة من أفواه القدماء المجربين، فإنها تمثل في الواقع أقدم أجيال البشرية، وتفسير هذه المفارقة أمر هين؛ إذ إن الجيل القديم عاش في وقت لم تكن البشرية قد اكتسبت فيه تجارب كافية، ومن هنا فإن خبرته وحكمته محدودة، في حين أن الجيل الحديث قد اكتسب خبرة من هم أقدم منه، وأضاف إليها خبرته الخاصة، ومن ثم فهو الأجدر بأن يُعد بمقياس الخبرة والتجربة قديماً، وليس هذا حكماً ينبغي إطلاقه دون تمييز على كل الأفراد؛ بل هو حكم يقال على سبيل التعميم، ولا يمنع بطبيعة الحال من وجود استثناءات.

والواقع أن الميل إلى الأخذ بسلطة القدماء يزداد في عصور الركود والانصراف عن التجديد، ومن هنا يمكن القول: إن الخضوع لسلطة القدماء

ليس في ذاته هو المؤدي إلى تخلف الفكر العلمي؛ بل هذا التخلف هو الذي يؤدي إليه(١).

والمقصود بـ (التراث) لدى أنصار العلمانية من المفكرين المسلمين: هو كل ما هو موروث من المسلمين الأوائل، سواء في الاجتهادات الخاصة بالدولة، أو النصوص الدينية بشكل عام، دون تحديد مجال معين للاجتهاد فيها، فالواقع هو الذي يفرض المعاني على النصوص بتفسيره وتأويله لها، في حين أن النص هو المذعن للتاريخ في واقع الأمر، وليس ثمة نص خالص غير مشوب بمعان ليست منه، فللنص قارئ ومتلق، وللنص تاريخ(٢).

وبالتالي؛ فالأصالة – كما يراها أنصار العلمانية – ليست العودة إلى الماضي لعصر ازدهار الحضارة الإسلامية، وإنما الأصالة تعني الانتماء الأصيل إلى العصر الذي نعيشه، وأن الغزو الثقافي الحقيقي هو ذلك الغزو الذي يحول بين العرب وعالمهم المعاصر، ويدفعهم إلى العودة للوراء بما يحقق ويكرس تخلفهم. ففي حين يظل العالم الغربي ما بعد المسيحي بشقيه الرأسمالي والاشتراكي، والعالم الشرقي البوذي الوثني بشقيه الصيني والياباني يحتكران أسباب التقدم، يظل العالم العربي يعيش حالة التهميش، دون محاولة للحاق بركب العالم المتقدم(٣).

- ويرى أغلب مفكري العلمانية أن نشأة الدولة الإسلامية في أعقاب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت مجرد ضرورة تاريخية استدعتها الظروف والملابسات التي أحاطت بالمسلمين في ذلك الوقت، وأن فكرة

---

(١) انظر: د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٤م، ص(٦٠-٦٥).
(٢) انظر: د. عزيز العظمة: العلمانية من منظور مختلف، ص (١٠- ١١).
(٣) انظر: د. صادق جلال العظم: ما بعد ذهنية التحريم، ط٢، دار الهدى للثقافة والنشر، دمشق ٢٠٠٤م، ص(٢٦٤- ٢٦٥).

الخلافة كانت اجتهاداً بشرياً أبدعه المسلمون لتحقيق استقرار وترسيخ الدين الجديد الذي نشأ في ظل عدم وجود دولة آنذاك؛ بل مجرد نظام قبلي مشرذم في الجزيرة العربية، وعلى العكس من المسيحية التي نشأت داخل الإمبراطورية الرومانية، وبالتالي لم تكن تحتاج إلى تكوين دولة جديدة، وإنما ظلت بمثابة المعارضة في الدولة الرومانية؛ حتى أصبحت الدين الرسمي للدولة، ومع تفكك الإمبراطورية الرومانية أصبحت المسيحية دين الكيانات الجديدة التي نشأت بديلاً عن الإمبراطورية، ولم تخرج الدعاوى منادية للعودة إلى الإمبراطورية الرومانية مرة أخرى بزعم العودة إلى الدولة المسيحية.

- وبذلك يرى (عادل ضاهر) أن العلاقة التي نشأت بين الإسلام والسياسة نبعت من ظروف نشأة الإسلام والصراعات التي اضطر المسلمون الأوائل إلى الخوض فيها، مما فرض اتجاه الإسلام نحو السياسة، وهذا ليس مبرراً لأن نقول إن السياسة بُعد جوهري من أبعاد الإسلام، أو القول إن الإسلام هو دين ودولة؛ لأن ذلك يعني أن علاقة الإسلام بالسياسة نابعة من ماهيته العقدية، وليس من ظروف نشأته(١).

- وكذلك يرى أن الإسلام نشأ في ظل ظروف اقتصادية معينة جعلت العامل الاقتصادي له دور في انتشار دولة الإسلام، بحيث كان للطبقة البرجوازية آنذاك ممثلة في التجار دور في تسهيل نشر الإسلام، وتوسيع نطاق دولته(٢). وبالتالي فأنصار العلمانية يرون أن مجموعة من العوامل السياسية

---

(١) انظر: د. عادل ضاهر: أولية العقل: نقد أطروحات الإسلام السياسي، دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ٢٠٠١م، ص (٨٨- ٩٤).
(٢) انظر: محمد أركون: العلمنة والدين: الإسلام المسيحية الغرب. ط٣. دار الساقي. بيروت ١٩٩٥م ص (٣٣- ٣٤).

والاقتصادية والاجتماعية الموضوعية تضافرت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، بحيث فرضت على المسلمين فكرة إنشاء دولة إسلامية في ذلك الوقت، أما الإسلام في حد ذاته كدين، ليس فيه فكرة الدولة الدينية المحددة المعالم التي يتحدث عنها أنصار التيار الإسلامي وكأنها بديهية من ثوابت الإسلام.

يقول (د. فؤاد زكريا): إن من يدعو إلى التفكير في مشكلات عصر ما من خلال منطقها الخاص، لا يتعين على الإطلاق أن يكون داعية إلى مواجهة المستقبل بغير جذور من الماضي. ففي الوقت الذي انتشرت فيه الدعوة إلى العلمانية في عصر النهضة الأوروبية، رداً على جمود الكنيسة الكاثوليكية، ظهرت أكبر حركة لدراسة التراث وإحيائه في أوروبا، وهي الحركة المعروفة باسم (النزعة الإنسانية)[*]، وأعيد نشر أهم مؤلفات الفلاسفة والأدباء اليونانيين القدامى بعد تحقيقها بأفضل الطرق العلمية المتاحة في ذلك الحين، وعرفت أوروبا صورة حضارتها القديمة بقدر من الدقة والوضوح لم يكن متاحاً لها في أي وقت مضى، وذلك في اللحظة نفسها التي أخذت فيها تتأهب لنفض غبار الماضي، والسير بكل قوة في طريق المستقبل. ومن المؤكد أن هذه الحركة المزدوجة نحو إحياء الماضي من جهة، ونحو القفز إلى المستقبل من ناحية أخرى، تبدو شديدة التناقض من جهة النظر الشكلية التي تسود لدينا في تلك الصيغة المشهورة: الأصالة (التراث) أو المعاصرة!!. ولكن أوروبا لم تحبس عقلها في إطار ثنائية كهذه؛ بل كسرت هذا التناقض، أو على الأصح تجاوزته،

---

[*] النزعة الانسانية: هي اتجاه فكري عام تشترك فيه العديد من المذاهب الفلسفية والأدبية والأخلاقية والعلمية ، وظهرت في عصر النهضة .

وبقدر ما أصبحت تؤكد مبادئ العقلانية والعلمانية في عصرها الحديث، حرصت في الوقت ذاته على كشف أدق تفاصيل تراثها، وبعث الحيوية والتجدد في أوصال ماضيها القديم، وما زالت الحضارة الأوروبية (التي تعني هنا الغرب بأسره) تدهش العالم، وتفاجئه بالتجديد المستمر الذي لا يدع للإنسان لحظة يلتقط فيها أنفاسه، وتعكف في الوقت ذاته على تحليل تراثها الثقافي القديم، والتعمق فيه إلى حد لا نجد له نظيراً في أية حضارة أخرى، دون أن تمنعها علمانيتها الراسخة من العكوف الدائب على تراثها.

- وعلى ذلك فإن العلمانية – كما يرى (د/فؤاد زكريا) – لا يتعين من حيث المبدأ أن تكون رافضة للتراث[١].

- إن العلمانية مهما تعمقت في التراث، تظل تضعه في إطاره التاريخي، وتربطه بظروف الزمان والمكان التي حددت معالمه، وهي لا تقع أبداً في خطأ الاستعاضة عن الحاضر مهما كان هزيلاً بالماضي، مهما كان مجيداً، ولذلك كان موقف العلمانية من التراث جامعاً بين الحفاظ عليه وتجاوزه؛ بل إنها ترى أن التراث لا يصان ولا يحفظ إلا من خلال عملية النقد والتجاوز. فمثلاً (الرياضيات) التي استوعبت – في وقت ما – كشوف (جابر بن حيان) ثم تجاوزتها، صانت تراث جابر على نحو أفضل بكثير مما يفعل أولئك الذين يعتقدون أن المبادئ العامة للعلم القديم ما زالت صالحة للتطبيق حتى عصرنا الحاضر، ولو نظرنا إلى الأمر بشيء من الموضوعية لتبين لنا أن اختزان التراث بعيداً عن إطاره التاريخي هو الذي يؤدي حتماً إلى هدمه،

---

(١) انظر: د. فؤاد زكريا: الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، ص (٧٤).

وأن تجميد الماضي إلى الحد الذي يُعد معه (صالحاً لكل زمان ومكان) هو الذي يسلب هذا الماضي كل نضارته وحيويته[١].

ويرى أن العلمانية شرط ضروري من شروط التعامل السليم بين الدول في المجتمعات الحديثة، على حين أن العودة إلى أسس أسبق تاريخياً منها، كالأساس الديني، تؤدي إلى الاختلال الشديد في العلاقات الدولية[٢].

* *

(١) انظر: د. فؤاد زكريا: المرجع السابق، ص٧٥.
(٢) انظر: المرجع السابق نفسه، ص(٧٠)

فهرست المصادر والمراجع

١.أولية العقل: نقد أطروحات الإسلام السياسي، د/عادل ضاهر، دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ٢٠٠١م.

٢. العلمانية في الفكر الإسلامي المعاصر، د/مي سمير عبده متولي، المكتب العربي للمعارف،ط ١، القاهرة ٢٠١٣م.

٣.العلمانية من منظور مختلف، ط ١، د/ عزيز العظمة، مركز الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٢م.

٤.العلمانية والدولة الدينية، د/ شبلي العيسمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦م.

٥.العلمنة والدين: الإسلام المسيحية، أ/ محمد أركون، دار الساقي، بيروت ١٩٩٥م.

٦.تكوين العقل الحديث، جون هرمان راندال، ترجمة: د/ جورج طعمه، ج ١، بيروت ١٩٦٥م.

٧.تاريخ البشرية، ترجمة: عثمان نويه وآخرين، المجلد السادس، الجزء٢، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧١م.

٨.الصحوة الإسلامية في ميزان العقل. د/ فؤاد زكريا، دار الفكر للدراسات والنشر ، القاهرة –باريس، ١٩٨٩م.

٩.المذاهب المادية جذورها وتطورها دراسة نقدية، د/ محمد مصطفى الشناوي، د. خالد إبراهيم حسب الله ، ١٩٩٧م.

١٠.من الفكر الحر إلى العلمنة، دونوروا ألبير بايه، ترجمة: د/ عاطف علبي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت، ١٩٨٦م.

١١.العلمانية ونهضتها الحديثة، د/محمد عمارة.

١٢.الصحوة الإسلامية في ميزان العقل ، د/ فؤاد زكريا.

١٣.مجلة الحوار، عدد٢ ، د/السيد أحمد محمد فرج (علماني وعلمانية، تأصيل معجمي ، عدد ٢ ، ١٩٩٢م.

١٤.من العقيدة إلى الثورة ، د/حسن حنفي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٨٨م.

١٥.الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة ، د/ فؤاد زكريا، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٦م.

١٦.حوار حول العلمانية، د/ فرج فودة، دار المستقبل العربي، القاهرة، ٢٠٠٥م.

١٧.التفكير العلمي، د/فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، ٢٠٠٤م.

١٨.ما بعد ذهنية التحريم، د/ صادق جلال العظم، دار الهدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٤م.

١٩. نقد الخطاب الديني، د/نصر حامد أبو زيد، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤م.

* * *